د. جورج معلولي

تجلّي الفمويّة عبر الصوم في كتاب كوستي بندلي Jeûne et Oralité

«باركوا الربّ في كلّ مواضع سيادته» [مزمور ١٠٢]

إذا كانت السماء والأرض تذيعان مجد اللّه، فبالأحرى جدًّا قلب الإنسان وآليّاته النفسيّة ووظائفه البيولوجيّة تتّضح، لمن صفت رؤيته، مواضع تمجيد ومعرفة «لقدرة اللّه السرمديّة ولاهوته» (رومية ١: ١٩– ٢٠). فالإله الحيّ الذي «خلق السماء والأرض والبحر وكلّ ما فيها... لم يترك نفسه بلا شاهد وهو يفعل خيرًا يعطينا من السماء أمطارًا وأزمنة مثمرة، ويملأ قلوبنا طعامًا وسرورًا» (أعمال ١٤: ١٧) وتجلّيات لا تُحصى لحركات النفس. هذه الرؤية للطبيعة، كتأمّل مجد اللّه في خلائقه، تشكّل المناخ الروحيّ– الفكريّ الذي يرتاح إليه كوستي بندلي في مقاربته للصوم في كتابه «الصوم والفمويّة» حيث تفضي منهجيّته العلميّة إلى الذهول والتسبيح. يعمّد كوستي بندلي معطيات التحليل النفسيّ بنور الإيمان المستقيم الرأي فاتحًا بذلك أفق بشارة العصر الحديث باللغة التي يفهمها أهل هذا العصر. فإذا استنار العقل بنور النعمة واتّحد بالقلب المنفتح على اللّه، فهو قادر على أن ينتج علمًا مستقيمًا. في هذا المنحى، يحاول بندلي، في هذا الكتاب، قراءة فريدة للصوم أمينة للتقليد ملتهبة بإبداعات الروح تخاطب عقول المعاصرين.

يبدأ الكاتب بإيضاح الأبعاد العاطفيّة للطعام. إذ يتجاوز السلوك الغذائيّ، لدى الإنسان، مجرّد الإشباع الغرائزيّ والحاجة الفيزيولوجيّة. يتّضح هذا في الارتباط الوثيق بين تناول الطعام جماعيًّا وتوطيد العلاقات الإنسانيّة، كما في المناسبات الاجتماعيّة (موائد الأعراس والمآتم) ومفهوم «الخبز والملح». تتّخذ مائدة سرّ الشكر هذه المعاني وتعمّقها: «فإنّنا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد لأنّنا جميعنا نشترك في الخبز الواحد» (١ كورنثوس ١٠ : ١٧).

في هذا المنحى، يغدو الغذاء رمزًا للمشاركة، حاويًا معنى علائقيًّا وإرادة مشاركة COMMUNION تعطي هذه الرغبة معنى جديدًا للسلوك الفيزيولوجيّ الغرائزيّ المحض.

تفضح الاضطرابات النفسيّة–الغذائيّة هذه الأبعاد. ففي حالات البوليميا مثلاً، «يعبّئ المريض معدته، ليملأ فراغ قلبه». كثيرًا ما تخفي اضطرابات السلوك الغذائيّ صراعًا سرّيًّا بين الطفل وأمّه. فمن أمّه يأخذ الطفل أوّل غذاء. يولد هذا الترابط (بين الغذاء والأمّ) في أولى مراحل الحياة ولا يُمحى بسهولة.

في حالة الطفل السابقة للنضج، تندمج علاقة الأمّ–الطفل كلّيًّا مع العلاقة الغذائيّة. في البدء، ليس من اختلاف بين الأمّ والغذاء. هي الأمّ–الغذاء. تتركّز عينا الرضيع على وجه الأمّ في أثناء الرضاعة، إذ يحاول

استدخال incorporer إمّه مع الحليب. هذا الإحساس المحيطيّ sentiment océanique هو Amour par l'estomac حبّ عبر المعدة. تولد من حاجة الأكل رغبة الاتّحاد مع كائن آخر، وتستقلّ تدريجيًّا عن إشباع الحاجة، وتتحوّل إلى رغبة علائقيّة. فعندما يبكي الطفل عند الجوع في غياب الأمّ، يفهم أنّ الأمّ هي «آخر» مستقلّ عن جسمه وحاجات جسمه. حينئذ، يصبح الاتّحاد بين مختلفين ممكنًا. تتحوّل العلاقة الاستهلاكيّة إلى علاقة مشاركة تتّخذ الرغبة الفمويّة البدائيّة وترفعها.

تمرّ هذه العلاقة بمراحل تطوّر متتالية. ففي أواخر الشهر الأوّل، يبدي الطفل انتباهًا واضحًا للوجه البشريّ. وقد يهدأ الطفل الجائع مؤقّتًا إذا اقترب منه وجه إنسان. بعد أربعة أسابيع، يبدأ الطفل بملاحقة الوجه بعينيه، بغض النظر عن الغذاء. وتبدو «الابتسامة الاجتماعيّة» في الشهر الثالث كردّ فعل على رؤية الوجه. في هذه المرحلة ما يزال الوجه محفّزًا غير شخصيّ. في الشهر السادس، يبدأ الطفل بالخوف من الغرباء وببناء علاقة شخصيّة مع الأمّ تكتمل في آخر السنة الأولى باستقلال تامّ عن الحاجة الغذائيّة. يؤدّي الفطام، المسمّى في إحدى القبائل «نسيان الأمّ»، دورًا مهمًّا في اكتمال هذه العلاقة: تُنسى الأمّ في علاقتها مع الغذاء، وتُعرف في كيانها الشخصيّ المتميّز المستقلّ. لكن، حتّى يصل الفطام إلى هذا الهدف، يجب أن يستند إلى علاقة عاطفيّة كافية وإحساس بالأمان، لكي يتحمّل الطفل الفطام، ويتشجّع على الانتقال إلى مرحلة أخرى.

تشكّل هذه العلاقة العاطفيّة الأولى نموذجًا prototype لكلّ العلاقات المستقبليّة.

انتقالاً إلى الصوم، فالعلاقة الجدليّة مع الفمويّة واضحة. تنكشف خطيئة آدم نموذجًا لافتراس الإنسان للعالم المخلوق. تنتج من هذا الافتراس انعزاليّة الإنسان في حين أنّ المشاركة هي الرغبة العميقة. إذ في محاولة الإنسان امتلاك اللّه عبر امتلاك مخلوقات اللّه، يقع في الغربة عن اللّه وأخيه. على صورة فطام الرضيع، يحاول المؤمن الصوم عن طعام اللّه بهدف لقاء اللّه. في هذا الخط، يعيد الانقطاع عن اللحم والحليب آليّة الفطام عن جسد الأمّ وغذائها بهدف التركيز على العلاقة الشخصيّة مع الآخر.

يعيدنا نصّ فيليبّي ٢ : ٦-١١ إلى هذه المعاني : فـ«الذي كان في صورة اللّه لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً للّه» من الممكن ترجمتها «لم يحسب فريسة/طريدة أن يكون معادلاً للّه» لذلك «رفعه اللّه أيضًا وأعطاه اسمًا فوق كلّ اسم». يعكس يسوع اتّجاه الرغبة الذي قاد آدم إلى الخطيئة دالًّا على العلاج.

يصبح الصوم لقاء بالربّ: «فقال لهم يسوع هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم. ولكن ستأتي أيّام، حين يرفع العريس عنهم، فحينئذ يصومون» (متّى ٩: ١٥). تذكّر هذه الآية بوضع الرضيع عندما تتركه أمّه موقّتًا. لذلك صحّ القول إنّ الصوم نوح يجلب الفرح باللقاء.

أشكال هذا اللقاء متعدّدة، أهمّها الصلاة. يتزامن الفطام مع بدء اللفظ والكلام عند الطفل. فالكلام أيضًا وظيفة

فمويّة، ولكن على مستوى أعلى من الأكل، وتعني علاقة شخصين. كما أنّ الأمّ بعد الفطام تنتقل إلى مستوى المحادث إذ بطلت أن تكون الأمّ–الغذاء، هكذا عبر الصوم ينطلق الكلام مع اللّه (الصلاة). نفهم أنّ الصوم من دون صلاة لا يصل إلى اللقاء المبتغى. دليل الصوم السليم أنّ الصلاة تنبع من الأحشاء كجوع حقيقيّ: «أفتح فمي فيمتلئ روحًا» و«كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه، هكذا تشتاق نفسي اليك يا اللّه». و«عطشت نفسي إلى اللّه إلى الإله الحيّ». آيات تظهرالرغبة في لقاء اللّه بمفردات فمويّة واضحة. نفهم أيضًا الآية: «أذلّك وأجاعك وأطعمك المنّ الذي لم تكن تعرفه ولا عرفه آباؤك، لكي يعلّمك أنّه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ ما يخرج من فم الربّ يحيا الإنسان» (تثنية ٨ :٣).

بدل استهلاك الخبز، يضعنا الصوم في حال تقبّل للكلمة–المتجسّد: «خذوا كلوا... جسدي مأكل حقّ...». «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب»، «ذوقوا الخبز السماويّ وكأس الخلاص، وانظروا ما أطيب الربّ». الموقف الإفخارستيّ المتولّد يضع الصائم في علاقة جديدة مع الخليقة. آدم الجديد يقدّم الخليقة للّه واللّه يقدّمها لآدم. تصبح الخليقة شفّافة للّه في عيني آدم الجديد في علاقة حبّ واندهاش.

ينعكس هذا الموقف على المحبّة الأخويّة: «قل لجميع شعب الارض وللكهنة: لمّا صمتم ونحتم... فهل صمتم صومًا لي أنا؟ ولمّا أكلتم ولمّا شربتم، أفما كنتم أنتم الآكلين وأنتم الشاربين... اقضوا قضاء الحقّ واعملوا إحسانًا ورحمة كلّ إنسان مع أخيه. ولا تظلموا الأرملة ولا اليتيم ولا الغريب ولا الفقير ولا يفكّر أحد منكم شرًّا على أخيه في قلبكم» (زكريّا ٧: ٥– ١٠).

الفمويّة هي تربة بدائيّة للحبّ. والهدف رفع الفمويّة إلى مستوى أعلى وليس إلغاءها. فمع كبت الفمويّة، تختبئ غرائزها في اللاوعي، حيث تصبح مستقلّة، وتبحث عن فرصة للانتقام في حين تخبو طاقة اللقاء والمشاركة. تظهر انحرافات الصوم نتائج فشل تجلّي الفمويّة. فالتفتيش عن نوعيّة الطعام، والتفنّن في اختراع الطبخات الصياميّة، هو انتقام خفيّ للفمويّة. أمّا التكبّر في التنفيذ الحرفيّ للصيام والتركيز على الأنا المتضايقة، فهو عودة للنرجسيّة. أمّا العدائيّة، فهي المظهر السلبيّ للفمويّة. إذ يصبح الصوم فرصة للساديّة (عدائيّة تجاه الآخر) أو مازوشيّة (عدائيّة تجاه النفس)، يحيا الصائم صومه كعقاب واكتئاب بدل الانتقال الى اللقاء.

لذلك يقترح الكاتب التدرّج في الصيام حسب تقدّم المؤمن، مع تشجيع الجانب العلائقيّ والتركيز على الصلوات وقراءة الكلمة مع توضيح أبعاد الصوم.

تكشف منهجيّة كوستي بندلي أنّ هيكليّة الإنسان النفسيّة مهيّئة في جذورها للقاء اللّه، وأنّ تجلّيها يندرج في التجلّي الكامل للإنسان، وأنّ معرفتها معرفة علميّة دقيقة التزام لهذا التجلّي. في سلاسة مدهشة، يستأسر كوستي بندلي كلّ فكر من أفكار العلوم الحديثة الى طاعة المسيح (٢كورنثوس ١٠ : ٤) ويقدّمها خبزًا للجائعين إلى اللّه.●

صدر حديثًا

هوذا الآن
وقت مقبول

الأب إيليّا (متري)

هوذا الآن
وقت مقبول

الأب إيليّا (متري)

هوذا الآن
وقت مقبول

الأب إيليّا (متري)

هوذا الآن
وقت مقبول

الأب إيليّا (متري)

هوذا الآن
وقت مقبول

الأب إيليّا (متري)